

صباح و شتاء

سيد البحراوى

صبـــاح وشتـــاء

سيد البحراوي

الفهرس

صباح... وشتاء

انتهيت- وأبى- من تناول طعام الإفطار. أكلت بيضـة وقطعة من الجبن وبنينة، وأكل هو بنينة وقطعة من الجـبن. ناولته كوب الماء. وقبل أن يشـرب سـأل أيـن الحبـوب فأحضرتها له. وقبل أن يفضها ليتناول واحدة قال: لولا هـذه الحبوب كنت ضعت..! أعلم أنها أفادتنى فائدة كبرى فـى كل شئ.

كان الصباح المبكر. وكان الجو حاراً. نظرت أمـامى متأملاً الشجرة أمام المنزل فى الناحية الآخرى من الطريق- على الترعة- تطل من الباب المفتوح خضراء بدرجات قاتمة فى الجزء الأعلى ثم فاتحة فى الجزء الأسفل. فكـرت أنهـا تكون دائماً خضراء، ولا يسقط ورقها أبداً. وأمعنت التفكيـر محاولاً أن أتذكر إن كان ورقها يسقط فى الشـتاء ... ولـم أستطع التذكر فقررت أن أسأله.

قلت الشجرة التى أمامنا شجرة كافور أليس كذلك ؟ قال لا.. توت، ثم قال: هل كبرت؟

قلت نعم كبرت جداً. فقال ليتها كانت التى أمامنا.. كانت قد ظللت علينا ومنعت الشمس والتراب.

أمنت على كلامه وصمت.. وكنت ما أزال متردداً فـى سؤاله خشية أن يفتضح جهلى.. وأخيراً سألته: طبعاً ورقهـا يقع فى الشتاء! .. قال طبعاً.

نظـــر

عندما فتحت الباب لأحضر نظارتى، انتبه وسأل مـن؟ قلت أنا. قال: هل نسيت شيئاً؟ قلت نعم نسيت النظارة.

كان قد سمعنى أحرك زر الكهرباء لأعلى، ثم لأسـفل. قال: أغلق الباب خلفك. خرجت من الحجرة وكأنى انتبهـت لأول مرة أنه يتألم. ها هو يقظ فى الظلام، ظلام دائـم منـذ سبع سنوات. فكرت أن معاناة الإنسان لا يمكن أن يعيشـها غيره، بل حتى لا يدركها سواه.

أبــى

كان لابد لأبى أن يموت فى غيبتى. كان هذا يقينه طوال الأربعين سنة الأخيرة من حياته، وكذلك من حوله من البشر لأنه رفض أن يذهب إلى أبيه لحظة احتضاره، فمات دون أن يرضى عنه. ولقد حاولت منذ أدركت هذا الهاجس أن أخاف النبوءة، فرفضت أسفاراً كثيرة فى الخارج، وداومــت علــى الحضور إلى البلدة بانتظام مطلــق، كــل أســبوع أو كــل أسبوعين، حسب الظروف، وحينما أصبح ممكناً أن تتعامــل قريتنا مع التليفون، أدخلت واحداً إلى منزلنا، ومع كل ذلــك فقد وقعت النبوءة بإرادتى وعلمى ويقينــى. فحــين تركتــه لأذهب إلى عملى(ربما كان هاماً، ولكنى على كل حــال لــم أتمه بسبب الوفاة) فى هذا الوقت، كان قد توقف عن تنــاول الطعام أو الشراب، وكان واضحاً أن الموت قادم يقينــاً، وإن لم يكن معلوماً متى بالضبط. لذلك سافرت. وحين أبلغت أنه فى حالة متأخرة، سارعت بالحضور، فوجدته قد مات. وكان -كما أكدوا- يسأل إذا كنت قد حضرت حتى لفــظ أنفاســه

الأخيرة بهدوء وبطء. [ولست أدرى -منذ ذلك الحين- إن كان قد مات راضياً عنى أم لا؟.]

أمي

رغم أن قريتنا كانت من القرى القليلة التى عرفت التعليم الابتدائى مبكراً، فإن أبى وأمى لم يكونا يعرفان القراءة والكتابة. وفى حين أن أبى يجيد الحساب وقراءة أرقام السبيه، أى الميزان، فإن أمى لم تكن تعرف أى منهما، مما كان سبباً دائماً لهجومه وتهكمه عليها.

حين فقد أبى بصره، وكان لديهما بقايا تجارة، اكتشفنا فى أمى قدرات كانت مختفية وظهرت فجأة. فقد نجحنا فى تعليمها كيف تقرأ السبيه دون أن تعرف الأرقام المكتوبة، وذلك بأن تعد الخطوط المتتابعة المنحوتة حتى تصل إلى الموقع الذى وقفت عنده السنجه، أى ثقالة الميزان.

وحين أصبح لدينا تليفون ، كانت حريصة على أن تتعلم كيف تستخدمه- ما لم تستطع أختى التى تعلمت فى المدرسة لعدة سنوات تعلمه- تعلمت كيف تطلبنى، وكيف تطلب أختى.

لكى تطلبنى كان الأمر سـهلاً أن تـدير الـرقم الأول (واحد) والرقم الأخير (صفر) كى تتصل بالسنترال، وموظفه فى الغالب كان يحفظ رقمى بالقاهرة. لكن فى بعض الأحيان كانت تقوم الخناقات بينها وبين الموظف، إذا لم يكـن مـن الذين يعرفون رقمى. كانت تتهمهم دائماً بالتكاسل، لأنه ليس منطقياً – بالنسبة لها ألا يعرف أحدهم رقم ابنها.

أما أختى التى تقيم بالقرية فقد كان الاتصال بها أصعب لأن رقمها مكون من أربعة أرقام، ومع ذلـك فقـد اكتشـفنا نظاماً يسهل عليها المهمـة. أن تـدير الـرقم الثـانى مـن البداية(٢) ثم الأول(١)وبعدها تدير الرقم قبل الأخير (٨) وما بعده (٩).

هكذا كان سهلاً أن تتصل بمن تريدهم فقط، ومن هـى فى حاجة اليهم.

بعد وفاة أبى، لاحظت أنها قد أخذت تعبر عن رغبتهـا فى إمتلاك الأشياء الجديـدة مـن أدوات المطـبخ. وكنـت أعجب من ذلك، فلم يكن هذا الأمر معروفاً عنها من قبـل. والأهم من ذلك أنها من أجل هذا الجديد كانت تضيع أشـياء مهمة. فقد كنت أتصور – مثلاً- أن طقس الخبيز فى الفـرن

التقليدى(العرصة)متعة بالنسبة لها لا تستطيع (التنازل عنها) وخاصة إذا كانت النسوة يجتمعن معها ويأخذن فى الثرثـرة، وأحياناً صنع الخبز الساخن بالسمن والسكر لأطفـالهن مـع مشاركتهن فى تذوقه.

لكنى فوجئت بأنها تكرر على مسـامعى أن فلانـه أو فلانه قد اشترت فرناً يعمل بالغاز، وكنت أتجاهـل الأمـر، حتى جاء يوم وأصرت فيه على أن تحصـل علـى واحـد فرضخت للأمر.

ولست أدرى كيف تستطيع مواجهة المشاكل وهى فـى هذا السن وقد أصبح تركيزها ضعيفاً.

ففى كثير من الأحيان أشم رائحة الغاز المتسرب مـن عين البوتاجاز وأتسائل ماذا تفعل فى حالة عـدم وجـودى. ربما تقوم جاراتها بالواجب.

المشكلة الأخيرة المؤرقة لها الآن. هى أن نظام التليفون سوف يتغير، ويصبح تليفوناً يتصل مباشرة بكل مكان، وهى قلقة لأنها لن تستطيع التعامل معه كما كانـت تفعـل. فهـل ستفشل حقاً؟.

أمي: قصة حب

قالت: سهام نجحت. قالت لك؟

قلت لها: أيوة.

قالت: بنت عفريته. اصرت أن تأخذ منى هدية لنجاحها بدل ما تجيب لى الحلاوة. فقلت لها: مامعييش، فتشت سيالتى ولقت اتنين جنيه. خدت واحد وسابت واحد.

فى المساء جاءت سهام، كانـت تتـاوش جـدتها فـى موضوعات متعددة حتى وصلت إلى موضوع الهدية. وفهمنا أن الجنيه كان ثمن بيع بيضتين لجارنا السعيد، قالـت لهـا: عملت أيه فى البيض الممشش. السعيد رجعه؟

أبدت أمى تجاهلاً وكأنها لم تسمع. انتبهت إلى خطورة الأمر، وإلى خطورة موقفها فضحكت بصوت عالى، وضحك الآخرون حين فهموا. وفهمت هى أنهم عرفوا الموضـوع، وأدركوا حيلتها بإدعاء عدم السمع عندما يكون الكلام محرجاً لها، فأخذت تدافع عن نفسها:

فيها أيه يعنى، ما عملتش جريمة بأبيع البيض علشـان أدبر نفسى- ازداد ضحكنا.. كانت تدعى أنها تشـترى لنـا

البيض لنأخذه معنا إلى القاهرة. كانت دائماً تـرفض حـين أحاول أعطاءها المزيد من المال.

نبهها ضحكنا إلى الجانب الآخر من الموضوع: السعيد الذى كان أبى يغار منه ويحرم عليها محادثته. قالت: أنا قلت لك بعد أبوك ما مات، ماليكشى دعوة بيـه، سـيبنى علـى حريتى. كفاية اللى عمله في أبوك.

واصلنا الضحك، وكنت مدركاً خجلها مـن أن أشـياء كانت تخفيها عنى قد ظهرت بالصدفة. أخذ خجلهـا شـكل جرح عصبى إزاء سهام، اتهمتها بنفس التهمتين: أنها تخفـى ما يعطيه لها المهندس الذى تعمل معه فى التدريب.

كنت سعيداً بأن وراء شكواها الدائمـة مـن المـرض والعجز حياة فيها بعض السعادة. فكرت أنه ربما يكون جميلاً لها أن تتزوج السعيد. ولكنى أدركت أننى سأتهم بـالجنون: ثمانينية تتزوج سبعينى

استمر خجلها طوال الليل، وحتى اليوم التالى.

حاولت أن أظهر اللطف معها متعمداً، كانت تستجيب بحذر، كما لو كانت تتوقع أن أنقلب عليها فجأة، وأتهمها بما كان أبى يتهمها به، بعد عشر سنوات من وفاته.

حقنة

فى الحادية عشرة مساء جهـزت الحقنـة. اسـتخدمت المنشار لقص رقبة الأنبوبة. أفرغت السرنجة من الهواء، ثم سحبت السائل بهدوء وحتى النهاية، ثم ضغطته بداخلها حتى يطرد ما قد يكون تسرب من فقاعات الهواء.

أضأت المصباح، كانت نصف نائمة فتيقظـت. قلـت أديك الحقنة! قالت: تانى! استنى أما اتعدل.

قلت لأ خليكى. رفعت الثوب، وجدت تحتـه قميصـاً، أزحته، ثم رفعت السروال وبدا فخذها ضامراً، لكنـه كـان دافئاً.

غرست الأبرة بحذر وضغطت السائل حتى انتهى، ثـم سحبت الإبرة بهدوء ومسحت مكانهـا بالسـروال. أعدتـه وأعدت القميص والثوب والبطانية.

قبل أن أطفئ النور سألتها إن كانت قد تألمـت. قالـت الجسم مات ما عادشى بيحس بحاجة. لكـن صـوتها كـان سعيداً.

احتفال العيد العاشر

لم أكن قد انتبهت إلى أن أمى مغتاظـة حتـى انقلـب الموقد. لم تكن هى التى قلبته، وإنما أنا، ساعتها أدركـت أن توتراً ما، أو قلقاً يملكنى. لم أكن قد استعدت يقظتى تماماً بعد نوم ظهيرة ثقيل، بدأته بمضـاجعة لا ترقـى إلـى درجـة الاحتفالية باليوم مع زوجتى. بعدها غصت فى نـوم كنـت أتمنى ألا يدوم بعد الخامسة، كى أبدأ فى طقـوس الاحتفـال التى أرادتها هى حين قررت أن نحتفل بعيد زواجنا العاشـر بتورته وبشيشة أهدتها إلى بهـذه المناسـبة. كنـت سـعيداً بالشيشة، قدرت ما ورائها من رغبة واضحة، فى إعلان هذا العيد على ملأ من يقضون معنا الأمسيات حين نكون بالبلدة، بنات أختى وأولادها وأولاد عمى، فهى ترغب فى الاعتراف بجزء مخبوء من الهوية! أن أجلس بين هـؤلاء واسـامرهم وألتقى معهم فى عاداتهم اليومية.

استيقظت فى السادسة والنصف، معتل المزاج؛ سـعادة قلقة. وبدأت فوراً فى استجلاب الشيشة وإعدادها للعمل. جاء ابن عمى ليواصل العمل، كى يضبط مستوى الماء ويحكـم

تركيب الأجزاء المفككة للشيشة. وأخيراً اسـتوت ووضـع فوقها والنار، وبدأنا نتبادل الأنفاس.

في هذه اللحظة قررت زوجتى أن تبدأ الاحتفال فى حين اعترضت أمى همساً. ولـم أنطـق، فأحضـرت التورتـه، وضعت فيها ابنة أختى عشر شمعات صفاً وأضـاءتها. ثـم أطفأتها زوجتى داعية اياى للمشاركة فى الإطفـاء ففعلـت. أطفأنا الشمعات فى ضوء الكهرباء الساطع. وبدأ ابن عمـى فى تقطيع التورته والتوزيع على الحاضرين، وكانـت أمـى تعترض على كبر القطع التى يوزعها، وما أن انتهـى مـن التوزيع حتى احتفظت الباقى وهربت به إلى الداخل معلنـة أنها ستوزعه رحمة على روح أبى.

طقس العزاء

العزاء فى قريتنا طقس شديد الأهمية. تفـوق أهميتـه طقس العرس. والمشاركة فيه أوجب مـن المشـاركة فـى الأفراح. العزاء واجب على كل من تجاوز سن الطفولة مـن الشباب أو ربما المراهقة. وهذا لا يعنى أنه لـيس للأطفـال دور فى هذا الطقس،إنهم يقومون بدور ينشغل الكبار عنه أو يستنكفون القيام به. وهو دور سقاية المعزين. يحملون القلـة باليد اليمنى وبمهارة يتم تمرينهم عليها، بحيث تميـل القلـة المستند جسمها على يد حاملها، بفوهتها ناحيـة الشـاربين، ويمرون على الصفوف واحداً واحداً، مع توزيع الصـفوف بينهم بنظام لا يختل.

العزاء يتم فى قريتنا فـى الـدوار إلا إذا أعلـن أهـل المتوفى أنهم اكتفوا بتشييع الجنازة. وفى هذه الحالة يـذهب الأقربون إلى بيت المتوفى وحدهم. أما فى حالة الدوار، وهى عدة دواوير فى القرية لكل عائلة أو مجموعة عائلات واحد. فإن الناس بعد الجنازة يتوافدون ويدخلون الـدوار ليسـلموا على أهل الميت الذين يقفون فى صدارة الدوار، ثم يجلسون

على المصاطب الأسمنتية أو الدكك الخشبية المصفوفة بتواز وتقاطع فى ساحة الدوار. وإذا كان الميت ثرياً، فإن الكراسى الخشبية أو المغطاة بالقطيفة تحل محل الدكك الخشبية.

ليست الأماكن فى الـدوار متسـاوية ولكنهـا مراتـب ودرجات. هناك أولاً الصدارة التى يقف فيها متلقى العـزاء. وهناك المنصة المرتفعة التى يجلس عليها قـارئ القـرآن. والمكان الأهم وهو المكان المجاور للصدارة تمامـاً وهـذا يحتفظ به عادة لأعيان القرية أو للضيوف الغربـاء. وكلمـا بعدنا عن هذا المكان تضاءلت قيمة الموقع.

ومعظم أهل قريتى يعرفون مواقعهم جيداً فـى الـدوار بحيث أن الفرد يدخل ويسلم على أهل الميت ويتوجه تلقائيـاً إلى موقعه الذى يرى أنه يليق به، ولكن يبدو أن هذه المعرفة قد اختلت فى السنوات الأخيرة بحيث اقتضى الأمـر وجـود شخص أصبح يقوم بمهمة فى غاية الخطورة وهـى توجيـه الناس إلى المواقع التى ينبغى عليهم أن يحتلوها. يقف هـذا الشخص أمام الباب فى مواجهة الصدارة. وتبدأ مهمته بتنبيه متلقى العزاء إلى قدوم شخص أو أشخاص، وتحديـد مـدى أهميتهم بنطق أسمائهم بدرجات متفاوته الارتفاع من صوته:

اتفضل يا أحمد أو اتفضل يا حاج محمد أو اتفضل يـا دكتور أو اتفضل يا على بيه وفى هذه الاثناء يكون ذهنه قـد عمل فوراً على تحديد مكان كل قادم جديد، حسب خريطـة الدوار فى ذهنه وأهمية القادم.

الأولوية دائماً للضيوف، الوجهاء، العمدة ومشايخ البلـد ثم الأثرياء أو ذوى المناصب. فيما مضى كـان للمتعلمـين وخاصة المدرسين موقع هام فى هذه الأولوية، الآن أصـبح لأثرياء النفط هذا الدور وتراجع دور المتعلمين إلا إذا جمعوا مع تعليمهم الثروة.

يجلس المعزون صامتين يستمعون إلى القرآن، ويمـر عليهم كل حين من يشكر سعيهم أو من يقدم لهم فنجان القهوة (وفى العادة يرفضون إلا إذا كان الميت عجوز جداً) أو يقدم لهم السجائر (وعادة لا يتورعون عن تناولها وتدخينها أثنـاء التلاوة) أو أطفال القلل وهم أكثر نشاطاً وتوزيعـاً لسـلعتهم التى لا يستغنى عنها أحد وخاصة فى الصيف.

تتكون ليلة العزاء عادة من ثلاثـة أربـاع، أى ثـلاث فترات من قراءة القرآن، يتناوبها قارئان أو ثلاثة. إذا كانـا

أثنين يختم من بدأ الأول بالثالث، وهذا طبعاً هو القارئ الأهم والأغلى ثمناً.

بعد كل ربع فترة قصيرة تتيح لمن يريـد الخـروج أن يصطف فى صف طويل يمر أمام أهل الميت ليسلم علـيهم ويقول لهم البقية فى حياتكم ويردوا عليه البقاء ، شـكر ا سعيك.

يعلن القارئ نهاية الليلة بعد الربع الثالث بقوله الفاتحة، قاصداً قراءة الفاتحة على روح الميت.

بعدها ينصرف الجميع إلا الأقارب يقوم شخص بـدفع حساب المشايخ والكهربائى وعمال القهوة. ويبدأ الكهربـائى فى فك أسلاك الكهرباء واللمبات، ويتلكأ الباقون قليلاً، لكنهم – بعد قليل- يأخذون فى تقييم الليلة: ليلة حلـوة. المقـرئين كانوا ممتازين. الدوار كان مليان على آخره. النـاس مـش فاضية، موسم والناس تعبانه. الشيخ فـلان دا طمـاع مـا يصحش نجيبه تانى. الا فلان ما جـاش ليـه. ليلـة تليـق بالمرحوم، كان راجل طيب ما يفوتوش واجب ا يرحمـه، الفاتحه له.

مقبرة

آلت مقبرة العائلة إلى السقوط فهرع الشباب بقيادة ابـن الأصغر ليجمعوا نقوداً لإعادة بنائها. قالوا أن نصيب كل فرد فى العائلة، وليس كل أسرة كما كان الآباء والأجداد يفعلون، عشرون جنيهاً. تعجبت من المنطق، فـى البدايـة، ولكنـى سرعان ما عقلته. طبيعى أن تحسب الأنصبة على الأفـراد، لأنهم هم الذين سوف يموتون ويحتلون موقعاً فـى المقبـرة وليس الأسر.

ومع ذلك فقد دفعت نصيب ثلاثة أفراد، واكتشفت فيمـا بعد أننى أصررت على منطق أنصبة الأسرة، لأننى لست إلا فرداً. وأنا فرد وحيد يمثل أسرة. كان ينبغى أن يكون فيهـا آخرون زوجة وأبناء.

الزوجة لن تدفن فى هذه المقابر، والأبنـاء لـم يـأتوا أصلاً. بررت فعلى بالقول: ربما لا يستطيع بعض الأفراد أن يؤدوا أنصبتهم.

لم أكن معهم وهم يعيدوا البناء، لكـنهم كـانوا –أثنـاء زياراتى- يحكون لى ما فعلوا.. كيف جمعوا العظام بحكمـة

وجذر، وكيف حفروا عميقاً فى الأرض، وكيف داروا هـذه العظام بعد أن وضعوهافى جوال محكم الإغلاق. وبعد ذلـك كيف أقاموا الجدران، وكيف فشل البناء فى إحكـام القبـو، وكيف لجأوا إلى بناء آخر أكثر خبرة فى بناء أقبية المقـابر بالذات، لما لها مـن طـرق خاصـة لا يعرفهـا البنـاءون المحدثون.

اكتمل البناء دون أن يخبرونى، ونسيت أن أسأل، ولذلك فوجئت، أثناء مشاركتى فى تشييع جنازة أحد الموتى، به وقد أصبح جميلاً مهيباً، وقفت أقرأ الفاتحة، وأبحث عـن قطعـة الرخام التى تحمل اسم أبى، ولم أجدها فى مكانها، كانت قبل ذلك فى الصدارة. ووجدت مكانها رخامة عمـى الأصـغر وتليها رخامة عمى الأوسط، أما رخامة أبى فقد أصبحت فى الركن الأيمن أسفل الجدار.

افتقاد

كنت افتقد امرأة، فوجدت نفسى بـين خمـس نسـاء، إحداهن على الأقل تشتهينى، بالإضافة إلى أمى التى تعبدنى.

استيقظت من نوم لم يتم، نوم كاذب، وأعلمتنى أمى أن بنات حمدية قد جئن يسألننى لو كان ممكنـاً أن اصـطحب جدتهن إلى المقابر بالسيارة.

ولما كنت قد استيقظت دون أن أجد مـا أفعلـه، فقـد مررت على حمدية أسألها ماذا كانت تريد.

أعددت السيارة. أقنعت أمى بالمجئ إلى المقـابر فهـى تغيير على كل حال. فذهبت وجاءت بجارتها التـى تنتظـر دائما الفرصة لزيارة المقابر، وجاءت حمدية وأمها وحماتها. ازدحمت السيارة إلى درجة أننا لم نستطع اصـطحاب مهـا وسارة اللتين كانتا تبكيان لأنهما لن تستطيعا الذهاب.

فى الطريق تهكمت على السمينات من النسـاء اللائـى يجعلن أيمن السيارة يميل عن أيسرها. فضحكن فرحات. كن فى نزهة وكنت أشغل ذاتى عن مأساتى. وكنت مستمتعاً أننى فى المقابر.

نهايات

خلال الأسابيع الماضية، كانت صديقتى تعـيش أيامهـا الأخيرة فى الحياة، ولأنى كنت مشغولاً بها عملياً ونفسياً، فقد تركت أشياء كثيرة معلقة.

تركت على مكتبى ولاعات أوشك غازها على الانتهاء، لم أغامر بحملها معى إلى الخارج خشية أن ينتهى فى لحظة حرجة، وكذلك بقايا علب سجائر، وأقلاماً أوشك حبرها على النفاذ، لنفس الخشية. تركت نصوصاً لم تكتمل، لأن حالتى لم تكن تسمح بإكمالها كما يروق لى.

أول أمس ماتت صديقتى. وذهبت إلى المستشفى بمجرد علمى بالخبر، من حسن الحظ أنها لم تكن قد تركت غرفتهـا بعد. رافقتها إلى "الغرفة المبردة" وشاركت أخويها فى وضع جثمانها –الذى أصبح ضئيلاً- فى درج الثلاجة.

بالأمس ذهبت إلى بدروم المستشفى وانتظرت حتى تـم الغسل وحملتها فى النعش، إلى سـيارة التكـريم، وركبـت بجوار السائق حتى وصلنا إلى المقبرة، ووقفت عند فوهتهـا حتى سدوا عليها الباب.

وساهمت فى إحكام إغلاقه، ثم انخرطت فى البكاء.

فى المساء شاركت أهلها فى تلقى العزاء بعض الوقـت ولم استطع الاستمرار، فجلست أرقب المعزين.

اليوم استيقظت مرهقاً مغلقاً. ولكنى ظللت أحوم حـول مكتبى مدخناً بقايا علب السجائر واحدة وراء الأخرى. ومعها أخذت أنهى الولاعات الموشكة علـى الانتهـاء، ووجـدتنى أتناول أحد الأقلام التى أوشك حبرها على النفاذ، وأعدل فى نص كنت قد كتبته ليلة وفاتها، وحين انتهيت لم يكن القلم قد انتهى، تذكرت أن ثمة نصاً آخر عن مقبرة قريتنا كان حيـاً داخلى منذ أسبوعين، ينتظر الكتابة. فأحضرت ورقاً وكتبته، ولم ينته القلم بعد فتذكرت إضافة كنت قد قـررت إلحاقهـا بنص كنت قد كتبته عن أمى، فأحضـرت الـنص، وكتبـت الإضافة التى طالت لتصل إلى ما لم أكن قد فكرت فيه، وفاة جار لنا. انتهى النص، ولم ينته القلم بعد، ولذلك فقد وجـدت نفسى مدفوعاً لكتابة هذا النص. كى ينتهى القلم. ولكنه خذلنى ولم ينته بعد.

آخر يوم فى رمضان

فى الطريق إلى المقابر، كنت قد بدأت أسكن وأصـفو. خالد يلح فى إمساك يدى. يفتقد أباه دون شك، ويشعر بحنانى إزائه، يمكن حتى أن يعتبرنى بديلاً لأبيه، الذى لا أظن أنـه يذكره، فقد مات بعد مولده مباشرة.

أمام المقبرة، جلس بجوارى، وأنا أوزع القطع النقديـة على الأطفال الصغار –وبعض الكبار- سأل:

هما مامعهومش فلوس؟

قلت أيوه.

بعد قليل جاءت سلمى حفيدة أختى مع جـدتها وأمهـا، جرت إلى واحتضنتنى وجلست فى حجرى. واصلت توزيـع النقود. سألت:

هما بيخدوا فلوس ليه؟

فقلت علشان مامعاهمش.

قالت يعنى غلبانين.

قلت نعم.

لاحظت أن خالد قد جلس بجوارى منكمشاً حزيناً، فقـد حيويته ونشاطه. عرضت عليه بعض النقود فرفض.

بعد قليل استهوت لعبة توزيع النقود سلمى، فقررت أن تشاركنى فيها، فأخذت ما فى يدى من قطع، وتولت إعطائها للأطفال كانت سعيدة، وظل خالد حزيناً.

فى طريق العودة كانا يتبادلان الامساك بيـدى، ولكـن خالد ظل حزيناً.

فى المساء جاءنى مرتين، المرة الأولـى ليسـأل كـم سأعطيه فى العيد غداً.

قلت له زى ما أنت عايز: قال جنيه.

وفى المرة الثانية جاء ومعه محمد ابن عمـه المتـوفى أيضاً. جلسا يشاهدان معنا التلفزيون، ثم قال: محمـد قـال تعالى نأخذ العدية من عمك. قلت ماشى.

أعطيت كلا منهما نصفى جنية جديدين، فانشغلا بحصر ما مع كل منهما من مصروف، كان مـع محمـد جنيهـان أحدهما قديم، ومع خالد ثلاثة أحدهم أيضاً قديم. بعد دقـائق قال خالد: فك لى الجنية القديم بفلوس جديدة.

قلت: الجنية بنصف، ضحك محمد الأكبر سناً، ورفض خالد.

أخيراً رضخت وأبدلت لهما الجنيهين القديمين بأربعـة أنصاف جديدة.

هبة

وقفت فى منتصف الصالة لا تحرك ساكناً. بدا واضحاً أنها فوجئت بوجودى فأرخت رموشها ، ولكن مشيتها كانـت مترددة فى أنحاء الصالة. كانت ترتدى فستاناً جميلاً لا أدرى ما الذى شدنى فيه. ثمة صلة ما بينى وبينه. كان فستاناً أحمر غامقاً، تقليدياً ولكنه كان جميلاً.

حاولت أن أشد انتباهها بطرق شـتى: لوحـت بيـدى، ومطت شفتى بالطريقة التى تحبها.. لكن ذلـك كـان دون جدوى. تركت موقعها وتحولت إلى جـدتها وارتمـت فـى أحضانها.

كانت قد جاءت مع خالتها التى حكت أنها نادت علـى عدة مرات عندما مرت أمام بيتى، لكنى لم أجبها فذهبت إلى بيتهم غاضبة منى تبكى وتصيح: سيد ما ردش على هبة.

قفزت من مكانى، وذهبت إليها وحملتها بـين ذراعـى واحتضنتها بقوة فلم تتأب وبعد وقت قليـل كانـت طبيعيـة تضحك وتلهو. لكن كلما سألتها عن سبب غضـبها منـى ، كانت تصمت.

سألتها: مين جاب لك الفستان الحلو ده، أرخت جفونها وقالت: سيد بخفوت. قالت أمى فستان عمتها المرحومة هبة. تذكرت أننى كنت قد اشتريته لها من باريس منذ خمسة عشر عاماً، لكنها لم تلبسه قط. فقد كان صغيراً عليها. كانت في الثالثة، حين اشتريته، ولم أكن أدرى أنه لطفلة فى الثانية من عمرها.

أحمد

منذ مات أبوهما، تعود أحمد وخالد على أن يجلسا إلـى جوارى أو على حجرى، أثناء صلاة الجمعة. ومـع الوقـت انقطع خالد عن الصلاة وواظب أحمد. لكنه لم يعد يأتى إلى.

اليوم، حين دخلت المسجد وجدته فى المقدمة، وقد أسند ظهره إلى الحائط وشبك يديه علـى ركبتيـه المرفـوعتين أمامه.وكانت قدماه عاريتان ممدودتان، فأغرتانى أن أضغط عليهما بخفة أثناء مرورى.

جلست فى مكانى وقد أيقنت أنه قد أدركنى، توقعت أن يأتى ولم يحدث حتى انتهت الصلاة.

وعند خروجى وجدته ينتظرنـى بالبـاب. شـبك يـده الصغيرة بيدى وسار بجوارى صامتاً حتى وصلنا إلى بـاب بيتنا.

سألنى: أنت هتنام. قلت أيوه. قال بعد لحظـة صـمت: خسارة. وصمت.

أدركت مقصده. وكان يحب أحد شيئين كل يوم جمعـة، أما أن يحصل على نصف جنية ويذهب ليشترى حاجة حلوة.

أو يصعد معى ليرسم بعد أن علمته، وكنت سعيداً بـالأمرين وخاصة الثانى. لذلك فقد قررت التراجع عن ردى، وسـألته ليه؟

قال: كان نفسى أرسم.

أخذته من يده وصعدنا. أحضرت له الأوراق والأقلام. تركنى أعمل على مكتبى، وجلس يرسم علـى الكنبـة فـى صمت وانهماك.

بعد وقت سألته بترسم أيه. قال ورد.. فى كباية. قلـت له: كده الورد هيموت. خلى جدوره فى الميه، راسـه فـوق الوش. قال هى علمتنا كده. قلت هى مين؟ قال الأبله.

تركته يواصل الرسم وعدت إلى عملى. بعد قليل أعـاد إلى الأقلام ووضع الأوراق فى مكانها ووقف إلى جـوارى يتحسس كتابى الذى أقرأ ويحاول أن يقرأ فساعدته. ثم قـال: أنا ماشى فأخرجت نصف الجنية وأعطيته له. فقـال مـش عاوز. قلت له: خد هات حاجة حلوة.

أخذه ومضى بهدوء. وظللت وقتاً طويلاً قبل أن أستطيع مواصلة عملى.

فى المساء أدركت أنه قد احتال علـى ليحصـل علـى الشيئين معاً. لم يكن يريد أن يطلب نصف الجنية لأنه حصل على مصروف العيد بالأمس. وكان يعرف أننـى أحبـه أن يرسم. كنت سعيداً بحيلته وبانخداعى له.

فى الجمعة التالية، لم أجده فى المسجد ولا عند البـاب. فوجئت به يقف جوارى أمام باب المنزل. داعبت شعره ولم ينطق اصطحبته، واتجهنا إلى الدخول، لكن شخصـاً نـادى على من منزل ابن عمى القريب. فـذهبت إليـه. ودخلـت وجلست، وحين بحثت عن أحمد لم أجده.

مضى بعض الوقت قبل أن ألاحظ أنه مختـف خلـف منزل مجاور، وأنه يطل على بين وقت وآخـر. لـم أطـل جلستى وقمت فوجدته ينتظرنى.

صعدنا إلى غرفتى، وجلس صامتاً ينتظرنى حتى أنهى مكالمتى التلفونية. بعدهاسألته: عاوز ترسم قال: أيوه.

أخذ الأقلام وأعطيته أوراقاً جديدة، قبل أن يبـدأ قـال: المرة الجيه حاضرب عاطف.

قلت: ليه.

قال: علشان قال إنك اديته نصف جنيه.

انتبهت: إنت ما جيتشى معايا علشـان زعـلان مـن عاطف. قال: لا...لأنى شتمته لما شتمنى، قلت :هو مين.

قال : سيده.

انتهى من الرسم. رسم هذه المرة هرماً. أعاد الأقـلام والأوراق ثم وقف إلى جوارى. فحادثته قلـيلاً ثـم قلـت: هتروح تجيب الحاجة الحلوة.

قال: هات.

أعطيته نصف الجنيه. وخرج.

الجمعة الثالثة لم أره فى المسجد. وحين وقفنا للصـلاة وجدته بجوارى. فكرت فى الخطة الجديدة التى سوف يلجـأ إليها للحصول على النصف جنيه.

فبالأمس جاء وحصل على ربع جنيه له، وآخر لأخيه، تبعاً لطلبه.

خمنت أنه ربما يلجأ لنفس طريقة الأمـس.. كـان قـد سألنى إن كنت أحصل على راتب من الجامعة قلت نعم. قال: ما بتقبضشى فى مصر؟ قلت إزاى؟ قال: ما معاكش فلـوس كتير. انت معاك فلوس كتير. فقمت وأعطيته ما طلب.

اليوم سار بجوارى تلقائياً بعد انتهـاء الصـلاة ونحـن نصعد السلم. قال سأرسم. وحين صعدنا أحضـرت الأوراق والأقلام وجلس يرسم. كنت أقرأ حين سألنى: إنت بتشـترى البلح ولا بتجيبه من على النخلة. قلت: باشتريه.

فهمت بداية الخطة، ولكنى لم أدرك ما الذى أدخل البلح فيها. فقلت ربما كان البلح الذى أحضرته لهم من الجزائر.

بعد أن انتهى، حرص على أن يرينى ما رسم، كان قـد رسم هرمين ومستطيلاً(سماه مربعاً) ومثلثين ونخلة تحمـل عنقودين من البلح.

طفولة

ذات عيد وجدت مع حفيدى كريم مسدساً صغيراً لطيفاً، فأعجبنى. كان يشبه المسدس الحقيقى، كما أن صوت طلقاته كان يحدث فرقعه تشبه صوت الطلقات الحقيقية.

كان كريم فى ذلك الوقت يخـاف العنـف والأصـوات الصاخبة. طلبت منه أن يعطينى المسدس علـى أن أبادلـه بأخر كنت قد اشتريته ولم يعجبنى، رفض كريم فساهمت أمه معى فى إقناعه بالتخلى عنه، لى.

كان مع المسدس طاقم من الطلقات، لم أستطع استعماله كله أثناء تسليتى أحياناً بالمسدس، حينما لا يكون معى أحد أو يسمعنى من يمكن أن ينزعج من الصوت.

مع الوقت نسيت المسدس وطلقاته، وفجأة وجدتها فـى درج مكتبى، فأخرجت المسدس، وكان محشـواً، وحاولـت استخدامه فوجدته مكسوراً.

زارنى الحزن لأن لدى كمية من الطلقات، ولما لم أكن أعرف أين يمكن شراء المسدس، انتظرت العيد التالى.

فى العيد مررت على أصـحاب المحـلات والأكشـاك بعينى دون أن أجرؤ على السؤال، أحياناً اقتربـت أتفحـص أنواع المسدسات المعروضة، ولـم أجـد شـبيهاً لمسدسـى المكسور.

بقيت الأيام التى سبقت العيد متحسراً لأننى لم أصل إلى نتيجة، وفى صباح يوم العيد جازفـت باقتحـام المسدسـات المعروضة وتفحصتها. بدا لى واحد منها وكأنه، رغم عـدم شبهه بمسدسى، يصلح لنفس الطلقات. ولأنى كنت قد يئسـت من الحصول على شبيه بمسدسى أو مثيله، فقد طلبـت مـن البائع أن يبيعنى هذا المسدس.

أعطانى المسدس، الذى كان شكله طفوليـاً، وأعطـانى دسته من الطلقات، لاحظت أنها كانت قريبة جداً من الطلقات التى لدى.

سألنى، وكان قريباً لى، لمن تشتريه قلت، وأنا سـعيد، لكريم.

عدت إلى منزلى مسرعاً، وفضضـت الغـلاف عـن المسدس، وتأكدت من مطابقة الطلقـات القديمـة بالجديـدة، حشوته بالجديدة، وأطلقت أول طلقة.

كنت سعيداً، وشعرت أننى حققت أمنية غاليـة: أننـى أشارك أطفال العالم الاحتجاج العنيف، الذى يسمح لنـا بـه الكبار، ضدهم.

أطلقت عدة طلقات مع الصغار الذين زارونى، والكبار أيضاً. ثم اكتشفت أنه من السخف أن يواصل من هو فى مثل سنى اللعب هكذا. فقررت فى خيالى أن أوظف الطلقات، ضد من أساءوا إلى. وبدأت أفكر فى هؤلاء.. من هم.

لم يظهر فى ذهنى سوى اثنين. امرأة أوهمتنى بالحب ثم هجرتنى وأحبت آخر، أطلقت عليها الطلقة الأولى، انزعجت من صوتها. لكن قدراً من الراحة غمرنى، وكنت فى حاجـة لبعض الوقت لأطلق الطلقة التالية. كنت أعرف إلـى مـن توجه، إلى شخص تعمد تحطيمى، ونجح فى تحقيق ما يريـد إلى حد ما، كان يخشانى وعنده حق. كانـت طلقتـه أخـف وطأة. ما زال وقت حسابه قادماً. أما هى فليس لدى وسـيلة للانتقام منها. لن يستطيع أحد أن يجبر أحداً على حبه.

توالت الطلقات، ضد تلميذ بذلت له كل ما أملـك علمـاً ومالاً، وكتب رسالته إلى عدوى. انتهازى. وعلى فرنسـيس الذى استولى على الفتاة الفرنسية التى اعجبت بهـا وكنـت

أتمنى قضاء الليلة معها. ثم على الشخصين اللذين ضرباني أثناء محاولتي صف سيارتي في شارع محمود بسيوني، وإلى الشخص الذي كاد يضربني لولا حماية مرافقي في السـيارة في أرض اللواء.

وعادت إلى صورة حبيبتي المفتقدة، لم تعـد حبيبتـي. فأطلقت عليها طلقة أخرى.

لم أستطع نسيان كل ما فعله الرئيس كلينتون والرؤساء الأمريكيون السابقون عليه، ضدي أنـا شخصـياً، وكـذلك رؤساء وزارات الدولة الاسرائيلية وقيادات منظمة التحرير، ورؤساء الدول العربية العملاء. فأطلقت مجموعة متوالية من الطلقات، لا أدري عددها، حتى انتهى ما لدي من طلقـات، فحاولت النوم.

بعد شهر فسد المسدس. وكنـت – فـي رحلـة إلـى الواحات- قد اشتريت له كمية من الطلقات، لزوم الرحلة ولم استنفذها، ذهبت إلى من باع لي المسدس السابق، ومن حسن الحظ وجدت نفس النوع فاشتريت واحداً جديداً.

سألني البائع هل لديك طلقات، قلت بخجل ما: نعم.

وش القهوة

كل يوم يبدأ صباحى الحقيقى بوش فنجان القهوة. قبـل ذلك، يكون النوم هو المسيطر ما يزال.

نادراً ما أستطيع الكلام قبل أن يبدأ صباحى.

يتحدد صباحى ويومى بقدرتى على المحافظة على وش فنجان القهوة، وهى ليست مسألة هينة؛ بل شديدة التعقيد.

أضع الماء أولاً فى الكنكة. وينبغى ألا يزيد أو يـنقص عن كمية محددة تسمح باستيعاب البن والسكر دون أن يفيض الماء عن حافة الكنكة، أو أن ينقص عن حجم الفنجان، فيبدو الفنجان- فيما بعد- أقل كمياً وجمالياً مما يرضيك.

تضع الكنكة بالماء على نار هادئة، أكثر النيران المتاحة هدوءاً فى المكان، ثم تبحث عن الملعقة الصغيرة، وعليك أن تختار تلك التى يسمح حجمها بالـدخول فـى الكنكـة عنـد التقليب، ثم تأخذ بها ملعقة من السكر تضـعها فـى الكنكـة وأخرى من البن، وتنتظر قليلاً حتى يختفى البن فى الماء، ثم تبدأ فى التقليب الجيد، لأن هذا هو الذى يجعل البن والسـكر

يذوبان فى الماء بالقدر الذى لا يترك أثراً لحبيبات البن على لسانك حين تشرب.

بعد ذلك عليك أن تنتظر المرحلة الفاصـلة: الحصـول على وش حقيقى. وأنت هنا فى حالة صراع بين نقيضين، أن تعطى النار الفرصة الكافية لإتمام ذوبان البن والسـكر فـى الماء، وأن تضمن التدخل فى الوقت المناسب قبل أن يفـور الوش، لترفع الكنكة، وتصب الوش فى الفنجان، الذى تكـون قد أعددته قبل ذلك فى مكان قريب من الكنكة-فى الغالـب- فوق عين البوتاجاز القريبة من تلك التى عليها الكنكة.

يحتاج الإمساك بهذه اللحظة الدقيقة إلى مجهود ضـخم لمتابعة غليان الماء فى الكنكة، وحركة فقاقيع الهـواء التـى تحك جزيئات الوش من جوانب حافة الكنكة الدائرية. هذا إذا لم تكن قاعدة الكنكة مضبوطة فى وضعها على وسط عـين البوتاجاز. أما إذا كانت مضبوطة فإن ضغط الهواء يأتى فى الوسط ليصعد الوش ككتلة متماسكة إلى أعلى.

إذا نجحت فى الإمساك بهذه اللحظة، وقطفت الثمـرة، تكون قد أنجزت المهمة الكبرى، وما يتبقى بعد ذلك سـهل. أن تعيد الكنكة إلى النار، حتى يغلى ما بقى من القهوة، وحين

يصعد إلى الحاف، تحمله وتصبه فى الفنجان، الذى يكون قد احتفظ-فى قاعه- بالوش منتظراً البقية، وحين تنزل البقيـة إلى أسفل، يصعد الوش إلى أعلى.

إذا نجحت فى هذا فمعنى ذلك أنك قد استيقظت فعـلاً، وأن حواسك تطاوع ذهنك، وأن ذهنك فى حالة مـن التنبـه والسيطرة، تسمح لك بأن تبدأ يومك.

أما إذا لم تنجح وفار منك الوش، أو لم يتم تمثل الـبن والسكر فى الماء بالقدر الكافى، فهذا معناه، أنك لم تستيقظ، وفى الغالب لن تستيقظ بقية اليوم. وأنه-أى اليوم- سـيكون يوماً رديئاً، كمعظم الأيام.

عمى

كان عمى الحاج محمد أبـو عبـد ا رجـلاً طيبـاً، لطيفاً وحنوناً لكنه كان ثرثاراً لا يكف – إذا جلسـت معـه- عن الحديث، وفشاراً يمتلئ بالمبالغات التى تؤدى حتماً إلـى الأكاذيب.

كان قبل أن يشيخ جزاراً تزوج مرة واحدة هو صـغير لأنه وحيد أبويه، وقد انجب من زوجته عـدداً كبيـراً مـن الذكور والبنات، أنجب كل منهم أيضاً عدداً كبيراً من الذكور والبنات.

لكن فيما عداه، كان الموت حليف معظم أبنائه وهم فـى أعمار صغيرة. فقد مات جميع الذكور دون الستين. أما هـو فقد عاش حتى الثمانين بعد أن ماتت زوجتـه عـن سـبعين عاماً.

كانت زوجته ولوداً، ويحكى عنها أنها كانت تلـد فـى الفجر، ويجدها الناس فى الصباح جالسة وراء طشت الكرشة تبيعها للناس، دون أدنى إحساس بالألم.

بعد موت الزوجة فكر كثيراً فى الزواج، كـان يقـول عايزين واحدة عشر وفيها شوية لبن.

واتفق فعلاً مع أمرأة أربعينية من قرية مجاورة علـى الزواج. وحين جاءت تسأل عنه اصطادتها بناته وكرهوهـا فيه حتى لا تشاركهن معاشه بعد موته.

كان يجلس على دكة فى فراندة بيته يلعب - وهو العجوز- السيجة مع كل من هب ودب.

وتكون هذه فرصته للثرثرة والفخر بما أنجز هـو فـى حياته، وما أنجزه أولاده. فرغم أنهم كـانوا فـى وظـائف صغيرة، ناهيك عن أكبرهم الذى عاش بلا مهنة، وحاول أن يرث أباه فى الجزارة بعد أن توقف وفشل مثلما فشل فى كل المهن الأخرى. رغم ذلك كان عمى يـرى فـيهم عبـاقرة يحكمون البلد. فهذا فى وزارة الحربيـة وهـذا فـى وزارة التعليم، الوزارة كلها فى أيده، والثالث سائق فى شركة للغاز لكنه يسيطر على الشركة كلها ومديرها لا يعصى له أمراً.

ويبدو أن هذه المبالغات لم تكن كلها أكاذيب، لأن ابنـه المدرس –مثلاً- كان بالفعل على صلة بالمجموعة الطليعيـة فى الاتحاد الاشتراكى، وكانت له سلطة على زملائه وربمـا

على الإدارة فى المركز بسبب لسانه السليط الذى كان يمـلأ به التقارير التى كان يكتبها للأجهزة العليا.

كان يحبنى وكنت أحبه وأقدر دوافعه، فكنت أنصت لـه فى البداية مستمتعاً ولكنى كنت أمل بعد وقت لأن حكاياتـه كانت تتكرر، دون أن ينتبه، ودون أن يكون ماهراً فى تنويع هذه الحكايات. وكنت أصل إلى الملل التام حين يكرر علـى مسامعى حكاية السمكة التى رأى رأسها فى الترعـة وهـو يتوضأ لصلاة العشاء، ثم رأى زيلها وهو يتوضـأ لصـلاة الفجر.

تحايل

كانت أمى مقترة. ولست أدرى إن كان هذا طبعاً فيهـا، أم هى ضرورات الحياة، وأن كنت أميل إلى التفسير الأول، لأنها كانت، بما تحوزه نتيجة تقتيرهـا، تشـترى قـراريط متتابعة من الأرض. هل كان ذلك ضرورياً؟ أن نموت مـن الجوع من أجل هذه القراريط؟ ولكن أليست هـذه القـراريط ضماناً لئلا نموت من الجوع مستقبلاً. يبـدو أنهـا حسـبتها هكذا. ألا نشبع اليوم لكى لا نموت من الجوع غداً.

كنا إذن نعيش على ما نأتى به من الحقل ومـا تنتجـه البهيمة والطيور، دون البهيمة أو الطيور نفسها، فقد كانـت مصدر انتاج وليست سلعة نستهلكها. ولذلك نادراً ما كنا نرى اللحمة. أياً كان نوعها. واكتفت -فى المواسم- بذبح فرخـة أو شراء ٢ كيلو كرشة أو ربع قلب.

ذات يوم جلست وسط الدار وحدى مهمومـاً وجائعـاً. حولى كانت الفراخ والبط تملأ الباحة. رحت أتأملهـا. هـذه كبرت وسوف تبيعها أمى غداً فى السوق. وهذه أيضاً كبرت

ولكنها لن تبيعها فهى تبيض، وبيضها يفقس كتاكيت صغيرة. كان البط أكثر من الفراخ وتتدرج أعماره وأحجامه.

سرحت بذهنى -ربما بسبب الجوع- أننا لم نتناول لحمه منذ فترة طويلة. آخر مرة كانت عاشوراء أى منـذ شـهر تقريباً كانت فرخة. ولم أتذكر متى آخر مرة تذوقنا فيها لحم البط، وكانت منذ مدة طويلة وكانت بطة وليس دكراً. الـدكر أغلى.

فجأة لمحة نملة تسير بجوار قدمى، وفوراً التقت النملة وأمسكت بدكر البط القريب منى ووضعت النملة فـى أذنـه وانتظرت. أخذ الدكر يدور. وكلما توغلت النملة فى داخـل أذنه إزداد دوار الدكر. ناديت على أمى الحقى البطة، جاتلها دوخة. وراقبت أمى الموقف لمدة ربع ساعة، ولما تأكدت ألا فائدة أخذت الدكر وذبحته.

وفى تلك الليلة أكلنا وجبة شهية شوربة وفته وملوخيـة مع دكر البط. ورغم إحساسى بالذنب فقد استمتعت بالطعام. لدرجة أننى لم أتورع عن تكرار نفس الفعلة كلما تاقت نفسى إلى وجبة لذيذة.

ألـوان

جلست فى شرفة الفندق العريشى المتواضـع، أرقـب البحر من زاوية ضيقة، وأنتظر هدوء المساء. انتهت ضـجة الحفل الذى أقامه الفندق، لكن أصواتاً عاليـة جـائتنى مـن اليسار، حيث مستشـفى مبنـى مـن سـتة أدوار، سـمى تخصصياً- فكرت فى معنى "تخصصى" ولم اهتد إلا إلى أنه "خاص" كانت الأصوات آتية من رجلين لأحـدهما صـوت أعلى من الآخر، وأمرأتين، يقفون بجوار سيارة "هيونـداى" سوداء بابها الخلفى مفتوحاً.

استند ذو الصوت العالى إلى بـاب السـيارة الخلفـى المفتوح بينما كان الآخر أمامه فى الشارع يلوح بيديه. أمـا المرأتان فكانتا فى مقدمة السيارة، استندت إحـداهما إليهـا وواجهتها الأخرى فى الشارع.

كان الرجل الذى يستند إلى باب السيارة، يرتدى جلبابـاً أبيض، فى حين كان الآخر يرتدى قميصاً مشجراً وبنطلوناً. وكانت المرأة التى تستند إلى مقدمة السيارة تلـبس "بونيهـاً"

وبلوزة بيضاء بأكمام وجونلة، فى حين كانت الأخرى ترتدى حجاباً ملوناً مع قميص واسع لم أر ما يكمله من أسفل.

خمنت أن الأخيرة زوجة الأول، وأن الأولـى زوجـة الثانى.

انتظرت طويلاً حتى يكملوا حديثهم وشغلت نفسى بأمور أخرى جرنى إليها تفكيرى، ولكن سـيارة عـابرة بجـوار المتحاورين نبهتنى إلى أنهم قد ينهون حوارهم وينطلقـون. وبالفعل، تحرك الرجل والمرأة اللذان كانا فى الشارع تفاديـاً للسيارة. وبعد خمس دقائق كانوا يسـلمون علـى بعضـهم البعض وينطلق كل زوج وحده.

انطلـق ذو الجلبـاب وذات البلـوزة البيضـاء، فـى الهيونداى، وسارعت المحجبة وراء ذى القميص المشجر إلى سيارة بيك أب نصف نقل.

ذرة مشوية

أحب الذرة المقلية. يسمونها فى المدن مشوية. وهى أدق لأنها تشوى ولا تقلى. لا يوضع تحتها زيت أو سمن. ومـع ذلك، مازلت أحب قلى الذرة. حين يدعونى صديق أو قريب لنقلى ذرة. أكون سعيداً. وأسعد فعلاً حين أمارس الفعل. حفل جماعى بسيط .

يذهب من يحضر الأكواز من الحقل، ويعـد البـاقون الأدوات اللازمه للنار: أفرع أشجار فى الغالب، ونادراً قوالح ذرة جافة.

يجلس الجميع حول النار الموقدة بعد جهد. ثمة طـرق متعددة لإيقاد النار وشعللتها. والطريقة الأكثر انتشاراً هى أن تضع عود الكبريت المشتعل أسفل أفرع الشجر، ثـم تـنفخ فيها، ليس بفيك فهو لا يكفى، وإنما بغبيط الحمار يمسك اثنان بطرفيه ويحركانه يميناً ويساراً بقوة فيندفع الهواء إلى النـار فتشتعل مصهللة.

توضع الأكواز فى المناطق المشتعلة، ومع الوقت، ومع الوقت تبدو علامات على أن هذا الكوز أو ذاك قـد اسـتوى

فيلتقطه متولى النار ويقذفه إلى أحدكم، فى الغالب تكون أنت أول الملتقطين، رغم أنك لست أكثرهم شهوة للطعام. تفـتح الكوز بحذر بسبب سخونته، ولأنك لست متأكداً أنه الأفضل. وتبدأ فى التذوق. تحاول – فى البداية- أن تفرط حبات الكوز بأصابعك لكن الكوز فى هذه الحالة -حتى إن كان جيـداً- لا يستجيب لأصابعك بسبب سخونته الشديدة، فتلجأ إلى أسنانك تقضم سطوره من أعلى بحذر وتغوص فى السـطور حتـى أسفلها لتفتح لديك طريقاً- بعد ذلك- لتفريط الحبـات، كـى تلتهمها- متلذذاً- حبة فحبة.

ثعبان

كنت وزوجتى بالغرفة نحتسى القهوة ونستريح قليلاً من عناء العمل لحين تواصل مأمول. كان وجهى ناحية البـاب المفتوح. رشفة واحدة من الفنجان، وجملة أولى لم تتم، وأطل وجهه صغيراً، ظننت أنه سحلية، قمت إلى الباب أتأكد بعـد أن خلعت الشبشب واستعددت لقتلها. عند الباب وجدته. ثعبان متوسط الطول أسود اللـون. بمجـرد أن أحـس بأصـواتنا وبحركتى، أنسحب فى الاتجاه الآخر، ولم أعد أعرف أيـن ذهب. لا شك أنه اختفى وراء الكراكيب فى الردهة.

وقفت خائفاً ومحتاراً؛ الكائن الوحيد الذى أخافه. وكانت هى أقل خوفاً منى، المرة الأولى التى ترى فيها ثعباناً خارج حديقة الحيوان. أما أنا فقد رأيت عدة ثعـابين فـى حيـاتى، أحدهم كان ينام بجوارى، طوال الليل غالباً.

كان ذلك فى بيتنا هذا قبل أن يهدم ويعاد بنـاؤة. كـان مكوناً من غرفتين فقط، واحدة كبيرة نعيش فيها. وننام صيفاً. على الأرض. على الأرض كنا نفرش الحصـيرة قبـل أن نشترى سريراً.

كان عمرى أنذاك فوق العشرين، وأذكر أننى كنت فـى زيارة إلى البلد. ولم تكن أمى موجودة، كانت غاضـبة مـن أبى عند أخيها فى القاهرة.

حين استيقظت فى الصباح ولممت الحصـيرة وجدتـه تحتها ممداً بينى وبين الحائط. ورغم أن أبى لم يكن موجوداً فقد حملت الحصيرة بعيداً ووقفت ساكناً وهادئاً حتى تلوى ثم تحرك واختفى. يومها لم أكن خائفاً على هذا النحو.

ناديت على أمى. لم تكن موجودة. فنزلت قلقـاً لأنـى أتركها وحدها معه. فتحت الباب لأبحث عنها، وجدتها قادمة من بعيد، من اليسار. هناك منزل الشيخ الأمير. تذكرت. فى تلك المرة ذهبت إليه وأحضرته ليعزم على الثعبان ويتفل فى حلة ماء نرشها فى الموضع حتى لا يعود ثانية. نعـم هـو الشيخ الأمير يستطيع أن يمسك به.

قابلتها فى الطريق، وبحثنا عن الشيخ الأمير. قال دعـه يسرح ولكن ابنه شجعه على المجئ. كان يبـدو متـردداً أو غير متحمس. أين سنجده وسط الكراكيب، أخيراً جاء. كانت اكتافها عارية. أغلقت عليها الغرفـة وأخـذنا نبحـث عـن الثعبان.

أزحنا الكراكيب واحدة وراء الأخرى. لم يظهر الثعبان، قال الشيخ أن خوفى هيأ لى الصرصار ثعباناً. ذكرنى بنفس الموقف مع عمى. أكدت أننى رأيته. وأخيراً لمحته يتحـرك. ثم اختفى ثانية. ظللنا نزيح الكراكيب حتى وجـدناه وأخـذ يتلوى ويتحرك بسرعة. ساهمت فى تدويخه بضربة عصـا. نجح ابن الشيخ فى وضع حذائه على الرأس. لم يكن الثعبان نشطاً، تبدو بطنه ممتلئة. استكان وظل الابن يضـغط، قـال الشيخ لا تقتله. مد الشيخ يده وأمسك به من تحـت الـرأس مباشرة وخرج.

عند الباب وقف وخلع طاقيته- لم يعزم جهراً- وأخـذ يخلع أسنان الثعبان واحدة وراء الأخرى، قبل أن يلقيه فـى النهر: ربنا يسهل له، سيذهب إلى سلطانه. مدد يا رفاعى.

عدت إليها، وقد تخلصنا – إلى حد ما- مـن خوفنـا، فواصلنا احتساء القهوة ونحن نحكى عن الثعبان.

أزواج وأفراد

كان الوحيد يجلس مولياً وجهه للبحر.. يقرأ الصـحيفة. وكان الزوج يجلس- هو الآخر- فى مواجهة البحر والزوجة تقرأ الصحيفة وتحتسى البيرة، وكان الولدان يجلسـان إلـى جانبى المائدة يلعقان الآيس كريم. وكان الزوج الآخر، يجلس بموازاة زوجته كل منهما ينظر إلى البحـر. وكـذلك كـان الزوج الثالث.

وعلى البحر مباشرة كانت امرأة وحيدة تحتسى القهوة، مولية ظهرها للجميع، وتميل بجذعها أحياناً لترى البحر تحت عينيها مباشرة.

وخلف المرأة كان محبان يثرثران بحماس، بينما تزوغ نظرات الفتاة أحياناً.

وكنت أجلس وحدى وقد اشتريت أوراقاً وأقلاماً، أنظـر للبحر وللآخرين، وأريد أن أكتب شيئاً ما.

قصة حب

-١-

استندت إلى جدار ظليل أرقب الميكانيكى وهـو يعمـل بهمة ونشاط ونظام فى إصلاح السيارة. كان شـاباً وسـيماً. كانت حرارة الصيف حادة، ومع ذلك سقطت قطـرات مـن المطر لدقائق. لا يحدث هذا الا فى أوربا والاسكندرية. على اليمين انفتح فجأة شباك فى الدور الأرضـى، وأطـل وجـه جميل وشهى لامرأة ثلاثينية. بشرة قمحية فاتحـة، عينـان صافيتان، شعر أسود جبهة عريضة وكذلك كل الوجه، مـع استطالة تجعله أليفاً. الشفتان تتحركان انفتاحاً وانفراجاً مـع حركة الأسنان التى تلوك اللبانة التى فضحت حشمة الملابس الكاملة. نظرت إلينا ثم إلى الشارع يمينـاً ويسـاراً بهـدوء وثبات ثم استقرت واقفة تنظر دون قلق، لمدة دقائق ثم أغلقت الشباك واختفت، وإن كان ممكناً أن ألمـح حركاتهـا خلـف الزجاج ذهاباً وإياباً.

بعد دقائق أخرى عادت إلى الظهور، هذه المـرة كـان الميكانيكى يعمل فى وسط الشـارع،وجهت نظرتهـا إليـه مباشرة، ولم ينتبه، كان مشغولاً بحديث وهو يعمـل، لكـن

حواسه التقطت النظرة، وتواصلت عيناه معها لحظة، قبل أن يواصل حديثه وعمله بهدوء وثقة ونظام.

قصة حب

-٢-

جلست فى شرفة الفندق المطل على البحـر والأزيـاء والعربات، انتظرها كانت غرفتها -أسفل غرفتـى مضـاءة- ولكن لا أحد يظهر فى الشرفة.

فى الصباح لمحتها وأمها السمينة وأباها الأصلع، لم أر سوى جانب وجهها، وخُيل إلى أنها فى غاية الجمال.

فى الظهيرة فوجئت بها فى المطعم. كان ظهرها لـى، ولكنى أخذت أدقق فى المرأة الطويلة المواجهـة لـى ولهـا فوجدت وجهاً فى غاية الجمال حقاً. وبدا لـى أنهـا لمحـت تدقيقى فى المرأة لأنها أخذت تبدو مضطربة تروح وتجـئ وتغير من مواقع جلستها على المائدة. وتأكدت أنها جميلـة. فى نهاية النهار وبداية المساء جلست فى شرفتى مشتاقاً لأن تنظر إلى. وصلتها أشعة عينى، رفعت رأسها إلـى أعلـى ونظرت فوجدتنى، فاضطربت حركاتها وأخذت تروح وتجئ وتعطى لجسمها حق الحركة الحرة. حركة. حركة من يشعر أن شخصاً معجباً به يراقبه.

تكرر ذلك مرات عديدة حتـى حـل الظـلام فـدخلت غرفتها. فى نهاية المساء جلست فى شرفتى، أرقب خروجها إلى شرفتها، انتظرت طويلاً قبل أن تخرج فجأة لتنظر إلـى البحرفى لمحة سريعة وتعود إلى غرفتهـا، دون أن ترفـع عينيها إلى أعلى لترانى. كانت فتاة صغيرة وكنت كهلاً.

قصة حب

-٣-

بمجرد دخولها المكان، انتبهت حواسى. كـان وجههـا قريب الشبه جداً من وجهها. وكذلك تناسق أعضاء جسـدها، وطريقة ارتدائها الملابس. تى شيرت أبيض وبنطلون أسـود (جينز ستريتش).مع فارق أنها كانت تسـير بشـكل يبـرز مفاتنها، وخاصة نصفها الأسفل، الذى كانت تحركه على نحو مثير.

كانت معها عجوز تبدو أمها، محجبة، وطفلة صـغيرة تبدو إبنتها. جلسوا إلى المائدة التى تلى مائدتى من الخلـف على اليسار. فكان على أن ألتفت ورائى أراها.

لكنها لم تصعب على المهمة، إذ فجأة وجدتها قد نهضت بعنف وألقت بمبسم الشيشة والموبايل على المائـدة وأخـذت الطفلة، واختفت لفترة طويلة. شغلتنى فقمت أبحـث عنهـا. كانت بمعنى ما تمثلها لى. وكنت فى شوق إليها منـذ عـدة أيام، وفى عودتى لمحتها تجلس بين أمهات كثيرات يـراقبن أطفالهن الذين يلعبون على المراجيح.

على مائدتى سمعت صوت رنين موبايل مستمر. كـان على مائدة الأم، حاولت أن تجيب أو تسكت الصـوت، ولـم تفلح. تركته يكرر الصوت مرات متعددة، وظلت شاخصـة إلى الأمام. إلى الأبد.

قبل مغادرتى بقليل، توجهت إلى حيث يلعب الأطفـال بالمراجيح. وجدتها جالسة على أريكة بجـوار المـراجيح، ولكنها لا تراقب طفلتها، كان وجهها بائساً وحزيناً ومنكسـاً إلى الأرض، تكاد تبكى، هـى ذات الوجهالجميـل والجسـم الفاتن المثير. تأملتها لحظات من زوايا مختلفة، ثم وقفت عند بوابة ستخرج منها- لابد- وحين رأيتها خارجة قلـت لهـا، وكأنى أكلم نفسى. تليفونك يرن كثيراً، وأمـك لا تسـتطيع الإجابة. مضت ربما دون أن تنتبه أننى أكلمها.

قصة حب

- ٤ -

لم تنتبه إلى أنها تحبك الا حينما أحببت أخرى. وكنـت قد حاولت معها، لكنها كانت قد تزوجت، وهى المخلصة لـم تكن تستطيع أن تقبل الخيانة. فى مرات لاحقة أبدت طواعية متحفظة، وقالت أنها لا تريد أن تفقدك إذا حدث بينكمـا مـا يكسر الصداقة.

مرات قليلة تلامس الجسدان. الأيدى، الأعين، الخـدود، الصدور. فى كل مرة كانت العيون تتألق ويـزداد اللعـاب، وتبدو النار فى الأفق حين أكتشـفت أنـك تحـب أصـابها الاضطراب اقتربت منك إلى حد الاحتضان وتراجعت إلـى الخلف خطوات تكاد تكون هجراناً ومرضت وسـألت عنهـا ولم ترد، ثم عادت لتسعى وتسأل عن الحب الذى ينبغـى أن ينتهى، تتابع أخباره وينم صوتها عن عذاب مقيم.

فى البداية- حينما استشرتها كصديقة- أعلنت أن هـذا ليس حباً، هو انجذاب،ثم عادت تتسائل عما إذا كان مجـرد إنجذاب فقط.

وأنت الذى أدرك المأساة بعد فوات الأوان حاولـت أن تؤكد دائما أنه لم يكن حباً وأنت تعرف أنه كان حباً مستحيلاً، وأنك ضائع بين مستحيلين.

آن مارى

-٥-

ظللت شهوراً تطاردها عيناك، تبحـث عنهـا بمجـرد دخولك إن تأخرت، وتحرص على المجـئ قبلهـا.. ربمـا أسعدك الحظ فجلست بجانبها أو جلست بجانبك.

كان واضحا أنها ملكة.. رغم التواضع البـادى.. ثمـة اعتداد وقوة فى ملامح الوجه وحركة الجسـم إذ تسـير أو تجلس.. وكان فى كل ذلك عذوبة ورقة آسرتان.

رويداً رويداً ومع المجهود الضخم لتحقيـق الاقتـراب. اقتربت منها وحادثتها وحادثتك كزميل دراسة، ولكن سرعان ما كانت المحادثة تتوقف عند هذه الحدود.

وأنت الآن تجلس وحيداً على المقهى تنتظرها وتعـرف أنها لن تجئ.. مثل كل المرات السابقة، تعد بـالمجئ ثـم لا تجئ. تجلس إذن شاعراً بالغربة وفقدان اليقين، ولا تعـرف ماذا تفعل مع هؤلاء البشر. كيف تقترب منهم، وكيف تعيش بينهم.

على عكس يقينك جاءت آن مارى وجلست بجـوارك، وكان عليك أن تحقق ما أردت طوال تلك الشهور المضـنية.

كانت مطواعة، راغبة فى أن تفعل ما تريد، ولكنك لم تكـن راغباً فى فعل شئ. لم تكن ربما قادراً على فعل شئ. وهكذا وجدت نفسك تقود الحديث إلى الانغـلاق، لكـى تـذهب آن مارى وتحقق توقعك أنها لن تأتى.

قصة حب

-٦-

الواحدة صباحاً فى شرفة منزلك المطل على الترعـة، تحاول تأمل موقعك وما تستطيع فعله فى العالم الذى أصـبح يتأبى عليك.

هدوء تام وفجأة طرقعـات شبشـب حريمـى متلهـف متسرع، وصوت فتاة: كحـة مبحوحـة محـذرة متوجسـة مستمتعة. من أين هى عائدة.؟

قصة حب

-٧-

الواحدة صباحاً. جرس تليفون. ترفع السماعة لا أحـد يرد، صوت أنثى تبتلع ريقها ويغلق الخط. تضع السـماعة؛ وتحاول أن تنام.

-٨-

قالت لا أريد زهرة جديدة. كلما التقينا تهدينى زهـرة.. لا أريدها.

ماذا تريد إذن؟

ربما تريد شخصاً آخر لست قادراً على أن تعرفه لكـى تكونه.

وربما تعرفه وتعرف أنك لن تكون.

وربما لا تريدها لأنها تعرف أنك لن تكونه.

قلم

لا تعرفين – الآن- طبعاً أن قلمك الذى أهديتنى كـان قادراً. طوال الوقت على أن يقودنى إلى حلم جميل به أكتب أشيائى الحميمة وله اشتريت أحباراً من كل مكان زرته فـى العالم ويمتلك انسيابه القدرة على أن يقول أن ريشة القدماء لم تنته، وأن الجمال فى العالم ما يزال.

يقول قلمك الذى اهديتنى
أنك أحببتنى
وأننى أحببتك.

عرس

كان عرس فى فندق، وكعادة هذه الأفراح- فـى هـذه الأيام- أن يبدأ الأحتفال بزفاف العروسين من غرفة بالفندق حتى قاعة الاحتفال، وسط هتافات المدعويين وتصفيقاتهم.

وصلنا متأخرين بسبب الحر والزحام- مع انتهاء الزفة، أخذنا مواقعنا بعيداً قدر الإمكان عن مكبرات الصوت، ومـع ذلك لم ننج من صوتها العالى، بدأوا بأسـماء ا الحسـنى، والعروسان على باب القاعة، وفجأة انقلبت الموسـيقى إلـى موسيقى أوربية صاخبة فتحرك العروسان إلـى منصـتهما. واستمر العزف الغربى يقود الراقصات والراقصـين نحـو الساعتين، كنا خلالها لا نطيق أنفسنا من علو الصوت وعدم انسجامه. لولا هذه الفتاة.

كن جمعاً من الفتيات الجميلات ومتوسـطات الجمـال والقبيحات اللا نجحن فى تغطية قبحهن بما يلبسن وبالزينـة. وكن يتبادلن فى أشكال الـرقص المختلفـة، وكـان بيـنهن بارعات.. لكنها كانت أكثرهن براعة.. ربما لم تكن تـرقص أصلاً. ولكنها هى التى شدت انتباهى.

كانت تلبس فستاناً فضياً ينتهى عند قمة ثدييها، معلـق على الكتفين بشريطين رقيقين. وحين لحظتهـا منـذ المـرة الأولى أدركت أن هذا الزى ليس زينة وإنما ضرورة لإبراز أهم ما فى جسمها. أنها قادرة علـى تحريـك كتفيهـا مـع الموسيقى. وليس فقط وسطها أو ساقيها كما كانت الأخريات يفعلن.

بدت لى حركة الكتف دالة على أنها ترقص من الداخل حقاً، وفيما بعد أكدت لى حركات بقية أجزاء الجسم، وكـذلك الوجه الهادئ الصبوح، أن الرقص ينبثق مـن داخلهـا، وأن تصميم الفستان لم يكن ينفصل أبداً عن هذا الانبثاق الـداخلى العميق.

بمجرد انتهاء العشاء، سارعنا إلى التهنئة والـذهاب... على الباب سمعت الموسيقى تصدح من جديد... توقعـت أن فاتنتى ستواصل رقصها... وتمنيت لـو كانـت وحـدها... وبقيت.

قبلة

كانت القُبلة الأولى أمام مسجد المعز، فوجئت وبد أنهـا اندهشت من أن يحدث هذا فى هذا المكان.. المقدس.

لم تكن المرة الأولى التى نذهب فيها إلى شارع المعز.. كانت الثالثة. فى المرة الأولى تجولنا فى الشارع حتى قرب النهاية، لكنى كنت مرهقاً ولم استطع الاستمرار فى حين كان شوقها جارفاً للاحتضان ولو فى وسط الشارع. فـى المـرة الثانية، كان التجوال أمتع.. اليد فى اليد والروح فى الـروح. فجأة حين وصلنا إلى نهاية الشارع وتذكرت المكان.. كـان يغور فى منطقة مظلمة من الوعى.. أخذت أدقق وأتمعن فى المحلات ودكاكين الخضر والفاكهة. أليست هذه هى المنطقة التى كنا نأتى إليها أنا وأبى، لبيع البصل؟ نعم هـى. كيـف تنسى إلى هذه الدرجة.؟

قبل ذلك كنت قد تذكرت، وحكيت لها عن مولدى بنبوءة من سيدنا الحسين، حين زار أبى (الذى كان قد فقد الأمل فى الإنجاب) فى المنام، فأخبره أنه سيرزق بمولـود وعليـه أن يسميه باسمه. حين ولدت كان جدى قد مات وكان لابد مـن

تخليد اسمه، فلم يسمنى باسم الحسين، لكنه نذر أن يطاهرنى بجواره. وهذا ما أذكره بكل وضوح. أول ألـم عظـيم فـى حياتى.

وحكيت لها عن زيارتنا السنوية لمولد الحسين. وإقامتنا لمدة أسبوع فى شارع أم الغلام على رصيف الشارع الضيق نجلس وننام (فى الخدمة) حتى الليلة الكبيـرة. وعـدتها أن نزور معاً أم الغلام.. لم نفعل لأن القبلة جاءت فـى المـرة الثالثة أمام مسجد المعز. بعدها لم نذهب إلى هناك.

هل كانت القبلة مقدسة أم مسمومة.. قادتك إلى عشـق مجنون أيقظ روحك، أعاد إليك الأمل فى الحيـاة، وعشـت شهوراً من مشاعر الحب العنيف المضطربة المتقلبـة بـين المتعة والخوف والقلق والانتظار.. كان عشقاً بلا أمـل فـى المستقبل، لكنك غامرت بالولوج دون حساب للعواقـب. لـم يكن أمامك غير ذلك. كانت ساحرة وكنت راغباً مسـحوراً. وتذوقت السم المقدس ثم أخذت تتجرعه قطرة قطـرة حتـى تشبع جسمك. ومع ذلك فإنك لم تمت حتى الآن. هل يرعاك من كان ينبغى أن تكون سميه؟ أم أن الأمل الذى استيقظ فى الحياة، أصبح قادراً على حمايتك وتحويل السم إلى بلسم؟

صخرة

فى الطريق إلى رفح، مررنا بمدينة الشيخ زويد، مدينة صغيرة بنيت بجوار ضريح الشيخ الصالح، كانـت السـوق عامرة فخاض الأتوبيس بين البضائع والبشر حتـى وصـلنا بصعوبة إلى صخرة " موشى ديان". فى الطريق إليها كـان الدليل قد أخبرنا أنها صخرة على شكل فلسطين مقلوبة أتـى بها موشى ديان ونصبها فوق هضبة هنا تخليداً لذكرى ابنـه الذى استشهد فى حرب ٧٣. قال أيضاً أننا لا نزورها لهـذا السبب ، وإنما تخليداً لذكرى شهيدنا الذى قتل السبعة الـذين كان بينهم ابن ديان، لكن الدليل لم يستطع تذكر اسـم هـذا الشهيد.

حين وصلنا قال أنه ممنوع تخريب هذه الصخرة طبقـاً لنص اتفاقية كامب ديفيد، للأسف. هكذا قال.

نزلت من الأتوبيس ولم أرغـب فـى الصـعود إلـى الصخرة، فقد ألقيت نظرة على جرانيتهـا الأحمـر وشـكل فلسطينها، ودخلت كافيتريا ًالنخيل" وطلبت قهوة. كان المقهى لطيفاً، صنعت جدرانه وسقفه من البوص. وموائده من جريد

النخل فيما عدا المائدة التى جلست عليها، كانت من الخشـب مطلية بزيت أبيض صلب، أغرانى بأن أخرج القلـم الـذى كنت قد اشتريته بالأمس، وقد أعجبنى أنه يكتب بخط عربى عريض أسود. أخرجت القلم وكتبت:

تسقط اسرائيل وكامب ديفيد.

* * *

قبل أن نصل إلى رفح مررنا بمستعمرة ياميـت التـى ظلت آثار دمارها قائمة هى ومزرعة الزهور التـى كانـت بجوارها منذ عشرين عاماً. درنا حـول المسـتعمرة حتـى وصلنا إلى المصـنع الـوطنى لتعبئـة وتغليـف الأغذيـة والمشروبات، اشترينا زيت زيتون ، وليموناً وزيتوناً أسـود وأخضر، تذوقناه وكان طعمه لذيذاً. كنت أشـعر بالحصـر. بحثت عن دورة مياه فلم أجد، انتهزت فرصة ابتعاد الآخرين وتواريت خلف شجرة قصيرة بقيت خضراء وتبولت علـى حدود المستعمرة، وفعل آخرون مثلى، حين خرجنا لاحظـت عند البوابة لافته تشير إلى أن المصـنع قـد أقامـه جهـاز الخدمات العامة، وفهمت أنه الجهاز التابع للقوات المسـلحة. فيما بعد عرفت أنه ملك لابن أحد كبار المسئولين.

لم تكن رفح كبيرة، شارعها التجارى قصـير، اسـمه صلاح الدين، إمتداده على الناحية الأخرى من الحدود التـى قسمت البلدة نصفين، وكذلك أهلها. ولكنها سـمحت لسـبعة فلسطينيين من كل جانب بالانتقال إلى الجانب الآخر كل يوم، على أن يعودوا قبل الخامسة مساء.

توقف الأتوبيس عند بوابة صلاح الدين على الحـدود. كان العلم المصرى، وعلى الناحية الأخرى العلم الفلسطينى، وعلى يمينه علم دولة اسرائيل. وقفنا عند البوابة ننظر إلـى الجانب الآخر بعض الوقت، ثم تجولنا فى الشارع واشـترى بعضنا عجوة وسودانى وأعشاباً وفستق ثم عدنا إلى الأتوبيس الذى خرج بنا من المدينة، لكنه فجأة عاد لأن واحـداً ممـن اشتروا سودانى اكتشف أنه فاسد ويريد إعادته للبائع. إحـتج الركاب لكنهم رضخوا.

حين توقف الأتوبيس ونزل الزميل يبحث عن البـائع. نزلت لأدخن سيجارة. وفى لحظة تغلبت على ترددى الـذى دام ساعة، والتقطت صورة لبوابة صلاح الدين وفوقها علما مصر وفلسطين، دون علم دولة اسرائيل.

الكاميرا المغلقة

قادنى صديقى أمين الديب، الذى مات منذ عشرين عاماً إلى سعدى يوسف:"كل حانات العالم". هذا الصباح عثرت بين أوراقى القديمة المهملة على رسائل أمين وقصائده.

عشرون عاماً وأنا لا أهتدى إليها. بل أن اسـمه نفسـه ضاع من ذاكرتى، فى المرات التى تذكرت فيها شكله وهيئته ووجهه المنمش. اليوم وجدته، وجدت بعضاً من نفسى. كان شاعراً واعداً، ولكن رسائله كانت أفضل مـن شـعرهالمثقل بالرومانسيه. فى إحدى الرسائل جمله ينصحنى فيها، وكـان ذلك منذ واحد وعشرون عاماً ألا أبقى كالكـاميرا المغلقـة. لست أذكر حواراً. دار بيننا حول هذا المعنى.

فى رسالة أخرى وجدته يتحدث عن أن الكاميرا المغلقة لا تلتقط شيئاً ولا تبوح بأسرارها، فـإذا فتحـت، والتقطـت صورة، فإن هذه الصورة تبقى فى الذاكرة.

كان يتحدث عن أن ما يلقاه القلـب، وهـو الأهـم، لا يضيع. قادتنى رسائل أمين إلى الشعر. إلى سعدى يوسـف، وحواره مع الأخضر بن يوسف. وقادنى حواره إلى الكاميرا

المفتوحة. فتح سعدى يوسف الكاميرا المغلقة، وسـجل مـن ذاكرتها (التى كان واضحاً أنها التقطت كثيراً رغم إغلاقها). ما لم تستطيع إعلانه آنذاك. سجل صراع العالم الخـارجى. وصراع الداخل بين الأخضر وسعدى. بين المغلق والمفتوح، بين الوعى واللا وعى، بين الجماعى المفـروض والفـردى الخاص، الذى تتم به.

وقادنى سعدى إلى السؤال عن تحطيم القفل الذى يغلـق الكاميرا. هل هو فقط العـالم الخـارجى؛ أم أيضـاً أقفالنـا الداخلية، التى وإن كانت ميراثاً ممتداً من الخارج، قد تكـون أكثر خطورة، وأصعب مواجهة؛ وأن تحطيمها قد يكون هـو بذاته الطريق الصحيح لمعرفة كيف تحطم أقفال الخـارج ! هل هذا مهرب أم بداية؟